

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 08 (2010): 348 – 359
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تعليمية التراث الأدبي الجزائري
في قسم اللغة العربية وآدابها بين الواقع والآفاق

يحي حاج امحمد
قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

المقدمة:

يقول الشاعر الثائر رمضان حمود في كتابه بذور الحياة "..إذا جهلت أمة تاريخها فقد جهلت مستقبلها، وإذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها بيدها وألقتها في يد غيرها..".

إنّ الحديث عن التّراث حديث عن مجد الأمّة العريق، وحديث عن حضارة أنتجتها عقول أجيال عبر كثير من الاجتهادات الإنسانية الصّائبة والخيّرة، والتي استطاع فيها أبناء الأمّة أن يقدّموا كلّ خدمة جليلة ومكرمة خالدة، ونتاج إنساني نافع، أسهم في صنعها الذّوق الفنّي الرّفيع.

ولما أدركت فئة خيّرة من أبناء هذه الأمّة حقيقة الحفاظ على التّراث، فسارعت إلى إعادته صفحة مشرقة من صفحات الحضارة الإسلامية، ليغترف منه شباب الأمّة دروسا وقيما رائعة.

لقد امتاز الكثير من العلماء المسلمين الذين شيدوا الحضارة الإسلامية بخاصية فريدة وهي خاصية الموسوعية، فلم يكن الواحد منهم عالما متخصصا في فن واحد أو في فرع واحد من فروع العلم والمعرفة بل كان موسوعيا يعرف معظم ما انتهى إليه العلم في معظم التخصصات، ومما كتبوا فيه قضايا التراث الأدبي في مختلف فنونه وأمكنته.

أهمية التراث الأدبي الجزائري ودوره في تركيز الشخصية الوطنية:

إن تراثنا الأدبي الجزائري حافل بالأمجاد في أشخاصه أو صانعيه وفي إنتاجه وإبداعاته شعرًا ونثرًا، ولا أزيد في الحديث إلا ما أعرفه من خلال تجربتي المتواضعة في تدريس مقياسي الأدب الجزائري للسنة الرابعة (قسم الليسانس)، والأدب المغربي والأندلسي (السنة الثانية أدب عربي) وكذا من خلال تخصصي في دراسة التراث وتحقيق المخطوطات، وقد وفّقت ولله الحمد إلى تحقيق بعض المخطوطات الأدبية لأعلام جزائريين قدماء ومحدثين، وهو ما دفعني إلى إدراك أهمية التراث الأدبي الجزائري ودوره في تركيز الشخصية الوطنية، فاستعراض مسيرة شخصيات تاريخية وفكرية من أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، والدكتور مُحَمَّد بن أبي شنب، والشيخ الإمام عبد الحميد بن

باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ إبراهيم أبو اليقظان، وشاعر الثورة مفدي زكرياء.. وغيرهم الكثير الكثير ممن أثروا الساحة الفكرية والأدبية بإنتاجاتهم الشعرية والنثرية، والتي يتداولها الدارسون والباحثون مند زمن وما يزالون، هي ما جعلها جزء لا يتجزأ من تاريخنا، ولا أحد يشكك في أن تدريس تاريخ هؤلاء الأبطال والنابغين لأبناء الجزائر من الناشئة يعزز ويركز فيهم انتمائهم ويبني شخصيتهم الوطنية، فينشئوا بذلك متزني الشخصية متعلقين بأوطانهم وتاريخ أسلافهم، مقتدين بسيرهم متبعين لنهجهم ومبلغين لرسائلهم لمن يأتي من بعدهم.

وإن هذا الكلام ينطبق على كل الأمم بدون استثناء فهي جميعها تستلهم أمجادها وتبني نفوس أبنائها الناشئين من خلال تدريس تراث أدبائها وشعرائها..، والتراث الأدبي الجزائري لا يقل أهمية عن الدرس الأدبي لأي عصر من الأعصر الأدبية، بل هو جزء منها وحلقة في سلسلة تاريخ الأدب العربي لابد أن تأخذ نصيبها من العناية والدراسة، لدى وجب على الأستاذ المحاضر والمطبق المتخصصين في مقياس الأدب الجزائري الحديث، والأدب المغربي والأندلسي وكذا الأدب الشعبي أن يولوا جانبا من العناية غير يسير بتقديم نماذج متنوعة من الأدباء الجزائريين من كافة أنحاء القطر الوطني، دون التركيز المتكرر على النخبة المشهورة فقط، بل لابد من التعريف بالأعلام المغمورين وبأدبهم شعرًا ونثرًا، وحث الطلبة في أثناء إعداد بحوثهم الفصلية أو بحوث التخرج على دراسة شعر ونثر الأدباء المغمورين.

وأنا أقترح أن يبادر الأستاذ نفسه بوضع قائمة بأسماء الأعلام المغمورين، ويقدمها لطلبته مذللا بذلك الصعاب عليهم في توجيههم إلى المكتبات العامة والخاصة هنا وهناك، أين يمكن أن يجد الطالب الباحث ضالته، ويشبع نهمه من التعرف على أعلام الجزائر ويساهم في التعريف بهم وبتراثهم.

موقع التراث الأدبي الجزائري من الدروس النظرية (الواقع والآفاق):

فيما يتعلق بالدرس النظري للتراث الأدبي الجزائري ممثلا في مقياس الأدب الجزائري يمكننا الوقوف على عدة ملاحظات تعكس واقع المقياس وهي:

1– هذا المقياس يتناوله الطلبة في السنة الرابعة أي في سنة التخرج، ولسنا ندري لماذا انتقل هذا المقياس من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة، إذ الشيء الملاحظ عند عموم الطلبة _عندما يتعرفون على المقياس وعلى أعلام الجزائر وعلى تراثهم الأدبي_ هو تأسّفهم وتحسّرهم على عدم تعرفهم على هذا التراث الخصب في السنوات الماضية، إذ يكونون قد شرعوا في إعداد مذكراتهم للتخرج، فلو أتيحت لهم فرصة التعرف عليه قبل تلك السنة لكان اختيار الكثير منهم التطرق إلى موضوع من التراث الأدبي أو اللغوي الجزائري قبل أن يعيد دراسة قضايا من التراث المشرقي المدروس!!

2– بالنسبة للبرنامج الخاص بمقياس الأدب الجزائري موضوع الدراسة فهو كما يلي:

أ- الشعر:

1- دراسة لمصادر الشعر الجزائري الحديث.

2- الشعر الجزائري خلال القرن التاسع عشر/ موضوعاته وخصائصه (الأمير والديسي نموذجا).

3- عوامل النهضة الفكرية والأدبية في القرن العشرين.

4- اتجاهات الشعر الجزائري الحديث والمؤثرات الأساسية فيه:

أ- الاتجاه التقليدي المحافظ/ موضوعاته وخصائصه.

ب- الاتجاه الوجداني الرومانسي/ موضوعاته وخصائصه.

ج- الاتجاه الثوري/ موضوعاته وخصائصه.

5- حركة الشعر الحر في الجزائر/ مراحلها وخصائصها الفنية.

ب- النثر:

1- الأشكال النثرية القديمة في الأدب الجزائري وخصائصها الفنية:

الخطابة – المقامات – الرحلات – الرسائل (نماذج تطبيقية).

2- الأنواع الأدبية النثرية الحديثة في الجزائر وخصائصها الفنية:

المقالة – القصة القصيرة – الرواية – المسرحية (نماذج تطبيقية).

يتناول الأستاذ المحاضر في الفصل الأول حركة الشعر في الجزائر وفي الفصل الثاني حركة النثر، لكن الملاحظ هو أن الكثير من الأساتذة يبقون مشدودين إلى أثر الحداثة المشرقية أو الغربية في الأدب الجزائري، دون الولوج إلى تحليل النماذج الرائدة التي تميزت عن غيرها، وقد يقتصر بعضهم في الدراسة على نماذج محدودة ومطروقة بكثرة، غافلا أو متغافلاً عن إبراز الكثير من التجارب الأدبية المغمورة كما أسلفت في حديثي عن ضرورة دراسة التراث الأدبي الجزائري لمدى أهميته في تركيز الشخصية الوطنية.

3- تنويع النماذج مطلوب فالمحاضر في جامعة وهران مثلاً، لابد أن يبرز لطلبته المنحدرين في العادة من مناطق الغرب الجزائري أكبر عدد من النماذج، ويدل الباحثين على الأدباء المغمورين، وعلى المكتبات العامة والخاصة في تلك الجهة من الوطن وهكذا يفعل كل محاضر في الجامعة التي يحاضر فيها لطلبته.

ولعلي أدعّم قولي برأي المؤرخ الجزائري مُحَمَّد علي دبوز صاحب "تاريخ المغرب الكبير" حيث يقول: "..إن تاريخ الجزائر الحديث إذا لم نعجل به يضيع، فيا ليت كُتاب الجزائر يهتمون به فيكتب كل عن ناحيته كل ما يستطيع الوصول إليه، فيتكون لنا من مجموع ذلك تاريخ الجزائر الكامل، وليس تعصُّبا أن يقصر المؤلف جهوده على ناحيته، فإنه واجب فرض لأنه أعرف بها من غيره، ويستطيع من البحث فيها ما لا يستطيع سواه، ثم هو قد شاهد وحفظ من أحداثها التاريخية ما لم

يعرف غيره، فيجب أن يقدم كل ذلك إلى القرّاء، وإذا كتمه وضاع يكون آثما، وقد رأينا القدماء يخصّون بلدانهم بتآليف واسعة فلم يعدّ الناس ذلك تعصبا بل واجبا وفضيلة عظمى.." (1).

4– هناك اتجاه شعري مهم جدا وله مكانته من الدرس النظري في مقياس الأدب الجزائري الحديث ألا وهو: الاتجاه النضالي والسياسي، خصائصه وموضوعاته، وتمتد فترته من سنة 1936 وفيها تأسس حزب الشعب الجزائري (PPA) أين تحددت ملامح الاتجاه، إن لم نقل من سنة 1925 حيث كتب مفدي قصيدته الشهيرة "إلى الريفيين" يساند فيها ثورة الريف بالمغرب الأقصى، إلى أحداث الثامن من ماي 1945، أين برز خلال هذه الفترة نوع من الشعر عرف بشعر النضال السياسي الداعي إلى الوحدة الوطنية والوحدة المغاربية، وإن كان قطب الرحى فيه مفدي زكرياء، فقد كان هذا الاتجاه إرهاصا لظهور شعر الثورة التحريرية المظفرة سنة 1955، وليس منطقيا أن ننتقل بالطالب من الاتجاه التقليدي المحافظ إلى الاتجاه الثوري مباشرة دون تتبع المسار التاريخي للأحداث السياسية في الجزائر، وعن ذلك يقول مفدي مشيدًا بنضال أصدقائه في صفوف حزب الشعب ودورهم البارز في الإعداد لثورة التحرير الوطنية.

رعى الله عَيمَش في الخالد	**ين، وكحَّالَ في السابقين الكرام**
ورابحُ تَعبقُ أنفاسُه	**وغرَّافةُ الوطنيُّ الهُمام**
وعَسلةُ يندُبهُ طالبٌ	**فيلحقه بعد مُرِّ السِّقام**
هُم الثَّائرون الأُلَى وَلدُوا	**نوفمبر من صُلبهم، فاستقام!**
متى نزلت ثورة من سماءٍ	**نزول المسيح.. عليه السلام؟!(2)**

5– بالنسبة لمقياس الأدب المغربي استرعى انتباهي قضيتين لابد من الوقوف عليهما:

الأولى: بالنسبة للمصادر التي تعرضت للأدب المغربي يلاحظ وفرة في المراجع والدراسات المشرقية، وقد تعمد بعضهم التجني على أدبنا المغربي ووصفه بالمهلهل والضعيف، رغم نبوغ الكثير من الشعراء والأدباء ووصفهم بألقاب تضاهي شعراء المشرق كمتنبي المغرب (ابن هانئ)، وبحتري المغرب (علي الإيادي)، وأبي عتاهية المغرب (بكر بن حماد)، وقد تساءل قبلي مفدي في إلياذته عن ذلك الإجحاف واستاء كثيرا من هذا التنكر، فقال مدافعا عن الشاعر ابن هانئ:

عَلاَمَ يُلقَّبُ أَنـدَلُسِيّا	**فَتًى مَغرِبِيٌّ أَصِيلُ الأَبِ!**
فَكَم حَسَدُونَا عَلَى مَجدِنَا	**وَجَارُوا عَلَى البَلَدِ الطَّيِّبِ!**
وَكَم بِالجَزَائِرِ مِن مُعجِزَاتٍ	**وَإِن جَحَدُوهَا وَلَم تُكتَبِ!**
وَقَالُوا الرِّسَالاَت مِن مَشرِقِ الشَّمـ	**ـسِ، لَكِن يُخَالِفُهُم مَذهَبِي!**
وَلَو أَرسَلَ اللهُ مِن مَغرِبٍ	**نَبِيًّا، إِذَا كَذَّبُوا بِالنَّبِي!! (3)**

وقال مفدي معلقًا على هذه الأبيات: "إشارة إلى أن المشارقة حين يؤرخون للأدب العربي لا يذكرون مفاخر الجزائر وتونس والمغرب بل يقفزون من المشرق إلى الأندلس مباشرة، كأنما المغرب الكبير لا وجود له في الخريطة، وذلك بدافع الكبرياء والغرور ومركب الاستعلاء، والمغرب الكبير يباهي المشرق في الإشعاع الفكري عبر القرون"(4).

ثانيا: وهو ما يؤكد ويرسخ هذه النظرة السلبية والمجحفة للأدب المغربي، قلة الاستعانة بمصادر الدراسة التي وضعها مجموعة لا يستهان بها من الدارسين والمؤرخين الجزائريين من أمثال: الشيخ مُحَمّد علي دبوز، ومبارك الميلي، ومُحَمّد بن عبد الرحمن الجيلالي، وموسى لقبال.. وغيرهم الكثير من المحققين المنصفين، وفي هذا إشارة إلى ضرورة الأخذ بدراسات مفكرينا الجزائريين، لأنهم أعرف من غيرهم بتاريخ أوطانهم وكما يقول المثل: "أهل مكة أدرى بشعابها"، ولا يخفى على عاقل الدسائس والسموم التي بثها المستشرقون في دراساتهم المختلفة للأدب العربي..

موقع التراث الأدبي الجزائري من الدروس التطبيقية (الواقع والآفاق):

الملاحظ هو عدم التركيز على النماذج الأدبية المغربية بالقدر الذي يتم فيه تركيز الأساتذة المطبقين على الأدب الأندلسي، ربما لوفرة المصادر والمراجع والنصوص الشعرية والنثرية..، وبالتالي لابد من تنويع النماذج والتركيز في الفصل الدراسي الأول (الأدب في المغرب الإسلامي) على نماذج تطبيقية لأدباء جزائريين قدماء من أمثال: طارق بن زياد (الفتح الإسلامي للمغرب)، وبكر بن حماد الصنهاجي، والإمام أفلح الرستمي (العهد الرستمي)، وأبو بكر يحي الوهراني، والفضل بن سلمة البجائي (العهد الإدريسي)، وإسحاق الملشوني، ومُحَمّد بن الحسين الطبني _مؤرخ قرطبة_ (العهد الأغلبي)، وابن هانئ المسيلي (العهد العبيدي الفاطمي)، وابن رشيق المسيلي، وتميم بن المعز بن باديس، وعائشة العمّارية (العهد الزيري الصنهاجي)، والمهدي ابن تومرت، وأبو يعقوب يوسف الوارجلاني (العهد الموحدي)، ويحي بن خلدون (العهد الزياني).. إلى غير ذلك الكثير من الأدباء(5).

لكل هؤلاء آثار نثرية وشعرية منها: كتب ومؤلفات ودواوين وأشعار ورحلات وتآريخ للممالك والبلدان..، إن هذا التراث إذا لم يحفل به الدارسون فمن أين للناشئة والمتعلمين أن يقتدوا ويعتزوا بموروثهم الفكري والحضاري؟ لن يتأتى لهم ذلك ما لم يتعرفوا على تراثهم فيتعلقوا به _ليس تعلق المتبجّحين_ بل يثرونه بالتحليل والدراسة ويصقلوا مواهبهم وأقلامهم به..

إشكالية دراسة المخطوطات اللغوية الجزائرية (الواقع والآفاق):

المخطوط وقيمته الحضارية: لقد كثر الحديث في هذه السنوات الأخيرة عن المخطوطات، كما ظهرت اهتمامات مفيدة وعدة مبادرات طيبة تُعنى بالمخطوطات كمادة تراثية وموروث حضاري، يرمز إلى جهود السلف في نشر الثقافة، واتجهت البحوث المتعلقة بالمخطوط إلى تحقيق نصّه لكنها قُصرت في دراسته كوثيقة مادية أثرية حضارية تعطي صورة معبرة عن مختلف مجالات الحياة السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية..إلخ.

إن المخطوط سجلٌ حافلٌ يحفظ الأحداث ويرصد مجريات التاريخ ويواكب التطور الحضاري

ويقرب بين الجماعات التي تفصلها مسافات أو يحول بينها زمن، وهو وثيقة مكتوبة يمكن بالاطلاع عليها الاقتراب من عصر صاحب المخطوط ومكانه، ومن معرفة تفاصيل دقيقة عن الحياة الفكرية والعلمية والأدبية والحالة الاجتماعية، ويصلح مصدرا هاما للتأريخ للحضارة ومتابعة تطورها.

بالنسبة لدراسة المخطوطات اللغوية الجزائرية تجدر بنا الإشارة إلى أن الدرس اللغوي الجزائري لا يحتفي بالقدر الكافي والمتميز عن نظيره في المشرق العربي أو في المغرب الشقيق، فالمدونات اللغوية المغربية تكاد تكون مطروقة جميعها في الجامعات المغربية، وهذه ليست دعوة أنانية أو قصور نظر أو تكبرًا عن الدرس اللغوي المشرقي، بقدر ما هو احتفاء بجهود علمائهم في خدمة الدرس اللغوي العربي عمومًا، فهو لا يقلّ أهمية عن نظيره المشرقي، ونضرب لذلك مثلاً: أهمية ألفية ابن مالك (الأندلسي) في النحو، والأجرومية في النحو أيضًا وشروحها، فقد قدمت الكثير والكثير للنحو العربي، إذ حفظته من الضياع في فترة تاريخية مهمة كان المشرق العربي يئن تحت نير الأعاجم وسيطرتهم المطلقة، ثم إنها قربت النحو من أذهان الناشئة بعدما صيّرته نظمًا يسهل حفظه، إذ جعلتهم يتعلقون به وإن لم يدركوا جزئياته.. وهذه مزّية نفتخر بها على إخواننا المشارقة ولنا الحق في ذلك، بالتالي فإنه لابد من توجيه العناية إلى دراسة الجهود اللغوية والبلاغية من نتاج أدبائنا الجزائريين، فهي لا تقل أهمية عن نظيراتها المشرقية كما أسلفت، فهذا القطب امحمَّد بن يوسف أطفيَّش ـرحمه اللهـ (1818–1914م) قد ألَّف في علوم اللغة والبلاغة أزيد من عشرين مؤلفًا ذاع صيتها في المشرق والمغرب حين أُلفت، لكن معظمها ظل مخطوطًا إلى اليوم، ولا ندري بالضبط سبب الإعراض عن دراسة هذه الجهود وتحقيقها، وقد عرف هذا العالم الفذ مكانة العلوم اللغوية في فهم بقية العلوم فقال في ذلك: "..ومن عَلِم معاني الحروفِ ومصادر الأفعالِ وموازين الأسماءِ، والنحو واللغة، ومارس الفقه بالتعلم، جاز له الإفتاء بما في الكتاب بترجيحٍ.."[(6)].

ومن بين أشهر مؤلفاته في العلوم اللغوية:

– نظم متن "مُغني اللبيب"، في 5000 بيت، مخ، (وقد نظمه وهو ابن 16 سنة).

– المسائل التحقيقية في بيان التحفة الأجرومية، مخ.

–كتاب "بيان البيان" في علم البيان، مخ.

–كتاب "إيضاح الدليل إلى علم الخليل"، مخ.

–كتاب "ربيع البديع" في علم البديع، مخ.

–كتاب "تخليص العاني من ربقة جهل المثاني"، مخ.

–كتاب "الرسم في تعليم الخط"، مط، طح.

– شرح لامية الأفعال، (مط).

– تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد مخ.

– الكافي في التصريف (محقق).

– شرح شرح أبي سليمان داود على الأجرومية.

– حاشية على شرح المرادي على الألفية.

– الإنشراح في بيان شواهد التلخيص والمفتاح.

– حاشية على شرح القُطر.
– حاشية على شرح الشذور.
– حاشية على الأجرومية لأبي القاسم.
– حاشية على التمرين.
– شرح شواهد القزويني.
– شرح شواهد كتاب الوضع للجناوني.
– شرح شرح الاستعارات لعصام الدين.
– معتمد الصواب من شواهد قواعد الإعراب(7).

فإلى متى تظل هذه النفائس حبيسة الخزائن والرفوف؟!!

إشكالية دراسة المخطوطات الأدبية الجزائرية (الواقع والآفاق):

ولعلي أقصد هنا الدواوين الشعرية المخطوطة المدفونة في السراديب، أو التي تموت في صمت في الصناديق والخزائن المنتشرة عبر أرياف وبوادي ربوع هذا الوطن المعطاء، والمحفوظة في معظمها للتبرك والذكرى، إذ في الوقت الذي يُمنع عنها الباحثون أو يتمنّعون عنها، يُترك الوقت فسيحا للأرضة تلتهم ما بداخلها في هدوء وصمت..

وما في خزائن منطقة توات ووادي ريغ.. وغيرها، من الكتب والرسائل الأدبية والدواوين الشعرية مما تنوء عن دراسته وتحقيقه عُصَبُ الدارسين والباحثين، ولكن إذا تضافرت الجهود واتحدت الغايات يمكن فهرسة هذه الخزائن وتصوير ما فيها من المخطوطات وتعريفها لجمهور الدارسين فيقبلون عليها من كل حدب وصوب، وقديما قال الشاعر:

إذا الحمل الثقيل تعاورته أَكُ   فُّ القومِ، هان على الرقاب

ولما كان "ما لا يدرك جلّه لا يترك كلّه"، فإنه يظل من واجب الأستاذ اختيار نتف من الأشعار المخطوطة للدراسة والتحليل، وأن يوجه عناية طلبته إلى البحث في شخصيات أدبية ما تزال مغمورة، وهذا من واجبات العملية التعليمية.

من الأعمال الأدبية الشعرية التي حُققت مؤخرا "ديوان ابن بِحمان"، طبع سنة 2007 بمناسبة الجزائر عاصمة للثقافة العربية، ويقع الكتاب في 300 صفحة من الحجم المتوسط، ويتناول بالدراسة والتحقيق أشعار العالم الشيخ إبراهيم ابن بِحمان الثميني اليسجني المتوفى سنة 1232هـ/1817م، وهو أحد أقطاب العلم بمزاب _غرداية_ في أواخر الحكم العثماني بالجزائر، ويمتاز ديوانه الشعري بتنوع الأغراض والمواضيع، وعلى شعره مسحة من التأريخ والسياسة، كما يحوي الديوان على قصيدة حجازية في وصف طريق الحج وبُردة في مدح الرسول الكريم ρ، إلى غير ذلك في المراسلات والوجدانيات..

وقد ظل هذا الديوان مخطوطًا لسنوات عديدة رغم حاجة الدارسين الملحّة إليه خاصة ما تعلق بالفترة العثمانية في الجزائر، فقد أثرى هذا العمل المكتبة الجزائرية بذلك، وإننا ننتظر تحقيق المزيد من هذه الأعمال الأدبية الخالدة.

في الوقت الذي يبقى فيه شعر القطب أمْحَمَّد بن يوسف أطفيَّش متناثرًا بين الخزائن والمكتبات

في ميزاب وعُمان..، ينتظر التفاتة جدية من بعض الدارسين لتحقيقه ودراسته وتقديمه للقراء والباحثين، دون أن ننسى دواوين الشعر الشعبي أو الملحون، ولعل هذه الأخيرة تهم ربما مقياس الأدب الشعبي أكثر من غيره، ونفس الكلام ينطبق على ما قلته سابقا عن الشعر الفصيح.

إشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري الشفهي والمسموع:

بالنسبة لإشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري الشفهي والمسموع، يقتضي هذا وجود مناهج خاصة تعنى بجمع ودراسة هذا التراث المتناثر ونقله من الشفاه إلى الكتب، خاصة ما يتعلق بالشعر الشعبي والقصص والأمثال.. مما يتعلق بعادات وتقاليد مناطق عديدة من الوطن امتازت بتنظيمات اجتماعية محكمة وهيكلة تربط طبقات المجتمع بعضها ببعض، فهذا بحاجة ماسة إلى تسليط الضوء عليه كموروث حضاري يجب تثمينه والعمل على ترقيته والمحافظة عليه، لأنه جزء من هوية تلك المجموعة البشرية الصغيرة المنتمية إلى المجموعة الكبيرة التي كانت تتقاسم معها مجموعة معتبرة من الفنون الشعبية والممارسات الاجتماعية وأنماط التفكير وأساليب التعبير، لكنها فقدتها للأسف مع مرور الزمن، وبالتالي فإن الحديث عن دواوين شعرية شعبية وعن أمثال شعبية محلية، وقصص وروايات محلية أيضًا..، يستدعي عملاً منظمًا ومتواصلاً لرصد الموروث المشتت وتدوينه حتى يُدرس ويبعث من جديد في المجموعة التي ينتمي إليها، مثل أهازيج الحصاد والبدر، والتويزة، والأعراس وغيرها مما يتداول في تجمعات الرجال أو النسوة..

إشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية:

إن ما يميّز الأدب الجزائري بخاصية منفردة عن غيره هو: الازدواجية اللغوية، وهذه لا توجد إلاّ في شمال إفريقيا، ويقيم هذا نوعًا آخر من التمايز، ويدخله في جملة من الخصائص المركبة والمعقدة، أنبتتها صيرورة تاريخية لا مناص منها، إذ تدخلت في تشكيل الأدب الجزائري على مرّ العصور ثلاثة عناصر: العنصر المحلي، والعنصر العربي، والعنصر اللاتيني الفرنسي، وقد انصهرت هذه العناصر الثلاثة لغة وحضارة عبر التاريخ.

من هنا فإن من واجب الأستاذ المحاضر أن لا يغفل عن هذه التركيبة الحية، وليتذكر بأن الغنى في التنوع، كما يقول المثل الفرنسي: (la richesse es dans la diversité)، وأنه من الصعوبة بمكان إلغاء عنصر حيوي يشكل جزءً من أدبنا الجزائري، فالكثير من النصوص الشعرية والنثرية المميزة في بابها تحتفي بأقلام رائدة لأدباء جزائريين كان الظرف الاستعماري سببا أساسيا في تكوينهم المتفرنس، والقائمة طويلة وطويلة في هذا الباب، وجمع هذه النصوص الأدبية يبدأ من الصحافة الأولى التي طالعتنا في بدايات القرن الماضي 1900م وما قبلها بقليل، إلى التاريخ المعاصر، حيث تتعدد النصوص الروائية والأعمال المسرحية المتميزة لمجموعة مهمة من الأدباء الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية.

وبما أن النص الأدبي المكتوب باللغة الفرنسية يمكن ترجمته، فإن هذا يستدعي توفر معاهد الآداب واللغات على مترجمين متخصصين في الأدب اللاتيني بلغاته المتعددة، ينقلون من الفرنسية إلى العربية ما يقترحه عليهم أستاذ الأدب الجزائري مثلاً من نصوص لمؤلفين جزائريين روائيين أو مسرحيين أو شعراء،

ومثل هذه الطريقة كانت موجودة في الأقسام التقنية لبعض الجامعات الجزائرية، حيث يتصدى بعض المترجمين إلى ترجمة نصوص من الروسية والألمانية وغيرها إلى الفرنسية أو العربية بطلب من أستاذ مادة الفيزياء أو الإلكترونيك أو غيرها من المواد التقنية، وفي اعتقادنا فإن قسم اللغة العربية وآدابها لا يقل أهمية عن غيره من الأقسام التقنية في حاجته إلى الترجمة.

الخلاصة:

وبعد فإن الذي رمناه من وراء هذا العمل _على قلة جهدنا فيه_ هو الوصول إلى اعتبار تلكم الجهود العلمية في التأليف ونسخ المخطوطات المتعلقة بالتراث الأدبي الجزائري من المرجعيات العلمية التي لابد من وضعها في الحسبان، عند دراسة الأدب الجزائري والمغاربي لما تضمنته تلك الجهود من معلومات قيمة انتقلت من بلد إلى آخر بحيث تؤكد مدى التلاحم الفكري والحميمي بين الشعوب العربية، كما تبينت لنا مجموعة من الحقائق يمكن أن نلخصها فيمايلي:

1. إن تراثنا الأدبي الجزائري حافل بالأمجاد في أشخاصه أو صانعيه وفي إنتاجه وإبداعاته شعرًا ونثرًا، وضرورة إدراك أهمية هذا التراث ودوره في تركيز الشخصية الوطنية من الأهمية بمكان، واستعراض مسيرة شخصياته التاريخية والفكرية وتدريسها لأبناء الجزائر من الناشئة يعزز ويركز فيهم انتمائهم القومي ويبني شخصيتهم الوطنية، فينشئوا بذلك متزني الشخصية متعلقين بأوطانهم وتاريخ أسلافهم، مقتدين بسيرهم متبعين لنهجهم ومبلغين لرسائلهم لمن يأتي من بعدهم.

2. يفتقد برنامج مقياس الأدب الجزائري إلى بعض الدقائق المميزة والتي لا غنى عنها فيما يتعلق بالدرس النظري وهي:

أ– يتناول الطلبة هذا المقياس في السنة الرابعة أي في سنة التخرج، إذ الملاحظ عند عموم الطلبة _عندما يتعرفون على المقياس وعلى أعلام الجزائر وعلى تراثهم الأدبي_ هو تأسّفهم على عدم تعرفهم على هذا التراث في السنوات الماضية، إذ يكونون قد شرعوا في إعداد مذكراتهم، فلو أتيحت لهم فرصة التعرف عليه قبلُ لكان اختيار الكثير منهم التطرق إلى موضوع من التراث الأدبي أو اللغوي الجزائري قبل أن يعيد دراسة قضايا من التراث المشرقي المدروس!!

ب– بالنسبة للبرنامج الخاص بمقياس الأدب الجزائري يلاحظ بقاء الأساتذة مشدودين إلى أثر الحداثة المشرقية أو الغربية في الأدب الجزائري، دون الولوج إلى تحليل النماذج الرائدة التي تميزت عن غيرها، وقد يقتصر بعضهم في الدراسة على نماذج محدودة ومطروقة بكثرة، غافلا أو متغافلاً عن إبراز الكثير من التجارب الأدبية المحلية المغمورة.

3. غياب الاتجاه النضالي والسياسي، من الدرس النظري الخاص بمقياس الأدب الجزائري الحديث رغم أهميته وكونه إرهاصا لظهور شعر الثورة التحريرية المظفرة، إذ ليس منطقيا أن ننتقل بالطالب من الاتجاه التقليدي المحافظ إلى الاتجاه الثوري مباشرة دون تتبع المسار التاريخي للأحداث السياسية والوطنية في الجزائر.

4. بالنسبة لمقياس الأدب المغربي استرعى انتباهي قضيتين لابد من الوقوف عليهما:

الأولى: بالنسبة للمصادر التي تعرضت للأدب المغربي يلاحظ وفرة في المراجع والدراسات المشرقية، وقد تعمد بعضهم التجني على أدبنا المغربي ووصفه بالمهلهل والضعيف، رغم نبوغ الكثير من الشعراء والأدباء ووصفهم بألقاب تضاهي شعراء المشرق كمتنبي المغرب (ابن هانئ)، وبحتري المغرب (علي الإيادي)، وأبي عتاهية المغرب (بكر بن حماد)..

ثانيا: ما يؤكد ويرسخ النظرة السلبية والمجحفة للأدب المغربي، قلة الاستعانة بمصادر الدراسة التي وضعها مجموعة لا يستهان بها من الدارسين والمؤرخين الجزائريين المحققين والمنصفين.

5. يلاحظ عدم التركيز على النماذج الأدبية المغربية بالقدر الذي يتم فيه تركيز الأساتذة المطبقين على النماذج الأدبية الأندلسية..

6. بالنسبة لدراسة المخطوطات اللغوية الجزائرية تجدر بنا الإشارة إلى أن الدرس اللغوي الجزائري لا يحتفي بالقدر الكافي والمتميز عن نظيره في المشرق العربي في الحين الذي لا تقلّ أهميته عن نظيره المشرقي، ثم إن خدمات المغاربة للغة العربية لا تُنكر فقد حفظتها من الضياع كما قربت النحو من أذهان الناشئة بعدما صيّرته نظمًا يسهل حفظه، إذ جعلتهم يتعلقون به حتى وإن لم يدركوا كل جزئياته..

7. بقاء الكثير من الدواوين الشعرية المخطوطة دون تحقيق أو دراسة يجعلها عُرضة للزوال في هدوء وصمت..

9. يزخر التراث الأدبي الجزائري برصيد أدبي شفهي ومسموع يثمّن التنوع الثقافي ويعزز ضرورة جمعه ودراسته.

8. إن ما يميّز الأدب الجزائري عن غيره هو: الازدواجية اللغوية، وهو ما يقيم نوعًا من التمايز، إذ انصهرت فيه ثلاث عناصر هي: العنصر المحلي، والعنصر العربي، والعنصر اللاتيني الفرنسي، فتدخلت جميعها في تشكيل الأدب الجزائري لغة وفكرا وحضارة.

التوصيات:

1. وجب على الأستاذ المحاضر والمطبق المتخصصين في مقياس الأدب الجزائري الحديث، والأدب المغربي والأندلسي وكذا الأدب الشعبي أن يولي جانبا من العناية غير يسير بتقديم نماذج متنوعة عن الأدباء الجزائريين من كافة أنحاء القطر الوطني، دون التركيز المتكرر على النخبة المشهورة فقط، بل لابد من التعريف بالأعلام المغمورين وبأدبهم شعرًا ونثرًا، وحث الطلبة في أثناء إعداد بحوثهم الفصلية أو بحوث التخرج على دراسة شعر ونثر الأدباء المغمورين.

وأنا أقترح أن يبادر الأستاذ نفسه بوضع قائمة بأسماء الأعلام المغمورين، ويقدمها لطلبته مذللا بذلك الصعاب عليهم مع توجيههم إلى المكتبات العامة والخاصة هنا وهناك، أين يمكن أن يجد الطالب الباحث ضالته، ويشبع نهمه في التعرف على أعلام الجزائر ويساهم في التعريف بهم وبتراثهم.

2. تنويع النماذج أمر مطلوب فالمحاضر في جامعة وهران مثلاً، لابد أن يبرز لطلبته المنحدرين

في العادة من مناطق الغرب الجزائري أكبر عدد من النماذج، ويدل الباحثين على الأدباء المغمورين، وعلى المكتبات العامة والخاصة في تلك الجهة من الوطن وهكذا يفعل كل محاضر في الجامعة التي يحاضر فيها لطلبته.

3. وفي هذا إشارة إلى ضرورة الأخذ بدراسات مفكرينا الجزائريين، لأنهم أعرف من غيرهم بتاريخ أوطانهم وكما يقول المثل: "أهل مكة أدرى بشعابها"، ولا يخفى على عاقل الدسائس والسموم التي بثها المستشرقون في دراساتهم المختلفة للأدب العربي..

4. لابد من تنويع النماذج والتركيز في الفصل الدراسي الأول (الأدب في المغرب الإسلامي) على نماذج تطبيقية لأدباء جزائريين قدماء وذلك حسب توزعهم على الفترات التاريخية وتوجيه الطلبة في اختيار البحوث الفصلية إلى تتبع الآثار النثرية والشعرية المتنوعة ومنها: كتب ومؤلفات ودواوين وأشعار ورحلات وتآريخ للممالك والبلدان، ليثروه بالتحليل والدراسة ويصقلوا به مواهبهم وأقلامهم..

5. لابد من توجيه العناية إلى دراسة الجهود اللغوية والبلاغية من نتاج أدبائنا الجزائريين، فهي لا تقل أهمية عن نظيراتها المشرقية، فإلى متى تظل نفائس علمائنا في علوم اللغة حبيسة الخزائن والرفوف، كمؤلفات القطب امحمّد بن يوسف أطفيَّش ـرحمه اللهـ (1818–1914م)، وهو العارف بمكانة العلوم اللغوية في فهم بقية العلوم، إذ ألّف في علوم اللغة والبلاغة أزيد من عشرين مؤلفًا ذاع صيتها في المشرق والمغرب حين ألّفت، لكن معظمها ظل مخطوطًا إلى اليوم؟!!

6. يظل من واجب الأستاذ اختيار نتف من الأشعار المخطوطة يقدمها لطلبته للدراسة والتحليل، كما يجدر به أن يوجه عناية طلبته إلى البحث في شخصيات أدبية ما تزال مغمورة، وإن كان هذا من واجبات العملية التعليمية.

إن شعر القطب امحمّد بن يوسف أطفيَّش ما يزال متناثرًا بين الخزائن والمكتبات في ميزاب وعُمان..، ينتظر التفاتة جدية من بعض الدارسين لتحقيقه ودراسته وتقديمه للقراء والباحثين، دون أن ننسى دواوين الشعر الشعبي أو الملحون.

7. بالنسبة لإشكالية تناول التراث الأدبي الجزائري الشفهي والمسموع، فإن هذا الموضوع يقتضي إيجاد مناهج خاصة تعنى بجمع ودراسة هذا التراث المتناثر ونقله من الشفاه إلى الكتب، خاصة ما يتعلق بالشعر الشعبي والقصص والأمثال.. وغيرها، ثم العمل على تذليل الصعوبات والعراقيل أمام الطلبة الجادين المهتمين بالتراث، ومساعدتهم في جمع المدونات المختلفة التي يطرقونها، وتشجيعهم على المضي قُدمًا في تدوين تراثهم ودراسته وتثمينه.

8. من واجب الأستاذ المحاضر أن لا يغفل عن هذه التركيبة الحية للأدب الجزائري، لأنه من الصعوبة بمكان إلغاء عنصر حيوي يشكل جزءً من هويتنا، كما عليه أن يسعى لتقديم بعضًا من تلك النماذج لطلبته، وأن يدفعهم لجمع النصوص الأدبية المتناثرة في أعمدة الصحف الفرنسية من بدايات القرن الماضي إلى تاريخ اليوم، وهي تتعدد بين النصوص الروائية والأعمال المسرحية المتميزة..إلخ.

9. ضرورة توفر معاهد الآداب واللغات على مترجمين متخصصين في الأدب اللاتيني بلغاته المتعددة، ينقلون من الفرنسية إلى العربية ما يقترحه عليهم أستاذ الأدب الجزائري أو غيره من نصوص لمؤلفين جزائريين أو غربيين..، ومثل هذه الطريقة كانت موجودة في الأقسام التقنية لبعض الجامعات الجزائرية، حيث يتصدى بعض المترجمين إلى ترجمة نصوص من الروسية والألمانية وغيرها إلى الفرنسية أو العربية بطلب من أستاذ مادة الفيزياء أو الإلكترونيك أو غيرها من المواد التقنية، وفي اعتقادنا فإن قسم اللغة العربية وآدابها لا يقل أهمية عن غيره من الأقسام التقنية في حاجته إلى الترجمة.

الهوامش:

[1] – محمَّد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية، ط1، 1971، ج2، التقديم.

[2] – مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، منشورات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، دار البعث قسنطينة، ط1، 1973، ص76.

[3] – مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، منشورات الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي، دار البعث قسنطينة، ط1، 1973، ص53.

[4] – نفسه، الهامش، ص53.

[5] – أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، كله.

[6] - ينظر: امحمَّد بن يوسف أطفيَّش، كشف الكُرب، ج1، ص 86.

[7] - ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني ميزاب، نشر وزارة الثقافة، الجزائر، ط2، 2007، ص 140.